١٧ زيد بن على زين العابدين
الفـارس الفـقيـه

ولد زيد بن على زين العابدين بن الحسين ، المعروف فى مصر «بزين العابدين»، فى المدينة عام ثمانين للهجرة، فى وقت مازال رجع الأنين فيه على الإمام الحسين شهيد كربلاء يملأ الآذان. . ومازالت الفجيعة تغص الحلوق وتحرق الأكباد. . ومازالت ذكريات نكبة آل البيت تفرى صدور قوم مؤمنين.

ولد زيد بن على زين العابدين وقد استشرى ظلم واستبداد ملوك بنى أمية، حتى كان الخليفة منهم لا يطيق نصحاً أو إرشاداً. . وإلا فما معنى أن يعلن أحدهم - وهو هشام بن عبد الملك بن مروان - وهو فى بيت الله الحرام أنه سيقطع رأس من يقول له: «اتق الله؟!».

وفى هذا المناخ السياسى المشحون بالأسى، وجلال الذكريات، وبالشوق إلى الحرية، وفى بيت عبد صالح خرج يطلب العدل للناس، ويناضل لاسترداد حق مسلوب. . هو الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين الذى بقى من آل البيت يوم كربلاء حين أنقذه مرضه من أيدى قتلة أبيه وأشقائه. فى هذا البيت نشأ الطفل زيد بن زين العابدين. وحين توفى أبوه على زين العابدين تركه فى رعاية شقيقه الأكبر محمد الباقر، ليعيش فى مدينة الرسول ﷺ والتى كانت مُزدانة وقتئذ بالقُرَّاء، ورُواة الحديث، وعلماء الدين. . الذين مُسكوا ألسنتهم عن جور حكام بنى أمية، اتقاءً لشرورهم، حيث إنهم كانوا يبطشون بكل من يعارضهم، حتى لو كان ذلك سراً داخل النفوس والضمائر.

وعجب زيد بن على زين العابدين من سكوت أهل العلم عن المنكر، وعدم أمرهم بالمعروف.

وضاعف من ضيقه أنه كان يسمع خلال مواسم الحج والعمرة من رجال

يعيشون فى العراق أو غيرها من الأمصار سب الإمام على وزوجه فاطمة رضى الله عنهما على منابر المسلمين، وبأمر من حكام الدولة الأموية.

وهنا تساءل زيد: ولِمَ صبره على هذا كله؟ ولكنه عاد ليقول : وما حيلته والناس، فى المدينة وغيرها من أمصار الدولة الإسلامية يتقون مواجهة بطش واستبداد الأمويين؟

وفكر فى الرحيل، فليست المدينة التى يعيش فيها هى كل المجتمع الإسلامى.. واختار البصرة والكوفة.. وهناك وجد مجتمعاً آخر متحركاً.. نفوس أفراده تغلى بالسخط والرفض لظلم بنى أمية..

على أن زيداً كان يتذكر تحذير أبيه زين العابدين، ثم رجاء أخيه محمد الباقر من فَتْح مصاريع أبواب الفتنة من جديد.

فليست صورة ما صنعه أهل الكوفة بجده الحسين، ومن قبله جده لأبيه الإمام على ببعيدة عن عينيه.. هو يؤمن بأن عليه دَيناً، هو تعريف الناس أمر دينهم ودنياهم، لكن فى الوقت نفسه هناك شىء يراوده ويشغله بدون أن يعلن عن نفسه صراحة فالوقت لم يأت كى ينفذه!

وانصرف إلى العلم والدين وشغل نفسه بذلك.. ودَعَا الناس إلى إعمال العقل.. تُرى هل كان يبحث عن مخرج لأزمته. ولايجد سبيلا للوصول إلى ذلك إلا بإعمال العقل!؟

وفى الجانب الآخر كان الخليفة الأموى وعماله متربصين الدوائر بزيد بن على وجماعته. ولولا أن الخليفة كان يستشعر الخطر إنْ هو وثب عليهم لفعل.. وكيف يفعل وزيد هذا حوله جمع غفير من الفقهاء والعلماء والصالحين وأهل التقوى بينما حول الخليفة المأجورين والمرتزقة والجوارى.

وطبيعى أن يفكر الخليفة فى وسيلة يشوه بها هذا الإمام الشاب فى عيون مريديه، وهى الوسيلة نفسها التى يتبعها ملوك بنى أمية للتخلص من مخالفيهم: الحيلة، والمكر.

وافتعل هذا الخليفة وعماله عشرات الحيل لتشويه الإمام زيد فلم يفلح.. بل أتت أعمال هذا الخليفة بما لا يحب أو يرغب.. فالناس حول زيد بن زين العابدين يتزايدون، حتى وصل تعدادهم أربعين ألفاً.

هذا العدد الغفير من المؤيدين لزيد يطالبون بمبايعته خليفة للمؤمنين، ويستدعيه الخليفة الأموى، وتحدث بينهما مشادة، بعدها يصرخ الخليفة فى الإمام زيد قائلاً اخرج. ويقول له زيد: إذا خرجت فلن ترانى إلا حيث تكره.. وينفذ زيد رغبة مؤيديه فى مبايعته.

وتحدث المفاجأة يوم البيعة.. فكل من كان يطلب مبايعته يهرب خوفاً من الخليفة الأموى، حتى يصل عدد المؤيدين له مائتين، بعد أن تجاوزوا الأربعين ألفاً، ويناديهم المنادى: «اخرجوا من الذل إلى الكرامة» ولا يخرج أحد، ولا يرد أحد.

هنا يتذكر زيد بن زين العابدين مأساة جده الحسين.. ويهمس: أخاف أن يكونوا قد فعلوها حُسَيْنية وكان سلوكهم معه لا يختلف أبداً عن سلوكهم مع جده الحسين، ومن قبل مع الإمام على رضى الله عنه.. خزلوه فلم يُخْزَل، وقرر أن يقاتل دفاعاً عن الحقوق المسلوبة.

ويتقدم الإمام زيد فى نفر قليل لا يزيد على المائتين من فرسان الحق فى مواجهة جيش كثيف موصول العدد والعتاد، بل جيش المكر والخداع. والزيف والكذب.

ويخرج رجل على فرس من جيش الأمويين فى حماية السهام والنبال، ويأخذ فى سب فاطمة الزهراء رضى الله عنها، فيبكى زيد بن زين العابدين حتى تبتل لحيته ويصيح: «أما من أحد يغضب لفاطمة بنت رسول الله؟ أما من أحد يغضب لرسول الله ﷺ - ومن بين صفوف رجاله يهجم رجل على هذا البذئ الفاجر ويقتله.. وتحدث مفارقات وغرائب بعد ذلك.. الآلاف من جيش الأمويين ينقضون على زيد ورجاله فى هجمة رجل واحد ويقضون عليهم. ويستقر أحد هذه السهام فى جبهة الإمام زيد بن زين العابدين، وما أن ينزعه أحد أصحابه حتى

يموت. ويدفن من بقى من صحبه جثمان إمامهم زيد فى حفرة على الفور، خوفاً من التمثيل بجثته، كما حدث لجده الحسين رضى الله عنه.. لكن الأمويين ينبشون الحفرة ويمثلون بالجثة، ويفصلون عنها الرأس ليقدموه لكبيرهم ابن عبد الملك فى دمشق، الذى يأمر بتعليق الرأس الشريف على باب دمشق، فيقوم بعض الأتباع والمريدين بسرقة الرأس الشريف ويفرون به إلى مصر حيث يُدفن فى المقام الذى فيه مشهده بداخل مسجده المعروف بمصر.

وإلى جانب فروسية زيد وبطولته تلك التى كانت مضرب الأمثال، وإن كانت ليست بغريبة على آل البيت، كانت هناك ثقافته وعلمه وفقهه. والجمع بين الفروسية والعلم ليس بغريب على أبناء الإمام على كرم الله وجهه. فكما نعرف جميعاً أنه وأبناءه وفى مقدمتهم الحسن والحسين رضى الله عنهما كانوا يجمعون ـ إلى جانب الفروسية ـ الأدب والثقافة والتفقه فى الدين. وطبيعى أن يرث الحفيد زيد بن على بن الحسين بن على رضى الله عنهم أجمعين هذه الصفات جميعاً: الفروسية، والبطولة، والثقافة والتفقه فى الدين.

كان زيد يستمتع بهذه الأحاديث التى كان يسمعها عن أبيه «على زين العابدين» عميد آل البيت بعد استشهاد الإمام الحسين، وإلى جانب هذه الأحاديث كانت هناك المناقشات التى تدور بينه وبين من يحضرون مجلسه، فزودته هذه وتلك بثقافة قلما تتوفر لواحد فى زمانه.. كيف وقد كان أقرب الناس من العلم النبوى الذى يمتد جيلا بعد جيل.. يضاف إلى ذلك أن ما حدث للإمام علىّ وشيعته من فواجع ومآسى جعلتهم مصدراً للأحداث، وملتقىً للعارفين بفضلهم، المدركين لحقهم السليب، ليس فى المدينة المنورة وحدها، بل فى العالم الإسلامى كله. ولهذا ولغيره أصبح من الطبيعى أن تتفتح عينا «زيد» طفلاً صغيراً على ما لم يتوفر لغيره من أطفال المدينة. حتى إذا نشأ وترعرع ودخل فى دور الصبا وجد المدينة من حوله تزدان بالقراء، ورواة الحديث، وعلماء الدين.. يتذاكرون فيما بينهم، ويتلقون طالبى العلم من كل أرجاء العالم الإسلامى، فانصرف إلى التعلم والدراسة عدة سنوات، حفظ فيها علوم آل البيت، وكل مالديهم من أحاديث، هذا بالطبع إلى جانب حفظ القرآن، وتأمل تفسير آياته.

حتى إذا توافر على فقه المدينة وعلمها فكر فى أن يتركها إلى غيرها من المدائن، وأقربها فى العراق، حيث سمع عن مدارس علمية وفلسفية جديدة بها، كما سمع أن هناك عدداً من الصحابة والتابعين الذى فروا إليها من عسف واستبداد بنى أمية وظلمهم.

ورحل إلى البصرة والكوفة للتزود بالعلم والفقه. وهناك وجد مجتمعاً آخر غير المجتمع الذى ولد وعاش فيه بالمدينة المنورة. ومصدر الاختلاف بين المجتمعين أن ما يسمعه فى العراق أمر يدعو إلى العجب، وأى عجب أكثر من تفضيل على بن أبى طالب على الشيخين أبى بكر وعمر؟!

أو تكريم الإمام على حساب النَّيْل من خليفتى رسول الله: أبى بكر وعمر. ولعل المفكر الإسلامى الراحل عبد الرحمن الشرقاوى عبر عن ذلك فى كتابه «أئمة الفقه التسعة» فذكر أنه فى العراق وجَدَ - أىْ زيد بن على زين العابدين - جماعات مختلفة متطرفة من شيعة آل بيته، اضطرهم جور الحكام وظلمهم لآل البيت إلى المبالغة والتطرف.. والتفوا حوله. ومن هذه الجماعات المتطرفة من يدعى أن الوحى كان سينزل على الإمام على ولكنه أخطأ!؟ وآخرون يواجهون لَعْنَ الإمام على من فوق المنابر بصبٍّ اللعنات على الشيخين أبى بكر الصديق، والفاروق عمر بن الخطاب! ومنهم أيضاً من يعتقد بأن الإمام علياً لم يمت، ولكنه رُفع إلى السماء كعيسى ابن مريم عليه السلام! وكما تعلمّ من أبيه على زين العابدين، أو أخيه الأكبر محمد الباقر.. حاول أن يرد تلك الجماعات إلى الصواب فلم يستطع، وحاور رؤساءهم، فأنكروا عليه رأيه، واتهموه بأنه يُناصب جده الإمام علياً العداء.. فأعلن براءته منهم جميعاً كما فعل أخوه الأكبر وأبوه من قبل».

وتوجه إلى الذين يتوافدون على مجلسه، يوضح لهم مزايا الشيخين، ويذكر فضلهما على الإسلام، ويعلن أن توليهما الخلافة مشروع وصحيح، بل وأعلن على الناس: «كان علىّ أفضل الصحابة إلاّ أن الخلافة فوضت إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لمصلحة رأوها، وقاعدة دينية راعوها. فإن عهد الحروب التى جرت أيام النبوة كان قريبا. وسيف الإمام على فى دماء المشركين من قريش كان لم

يجف بعد، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا تنقاد له الرقاب كل الإنقياد».

ولعله فى ذلك كان متأثراً برأى أبيه ورأى أخيه. ولعل ذلك وغيره جعل إمامين جليلين فى ذلك الوقت، هما أبو حنيفة النعمان، وواصل بن عطاء ينجذبان إليه لتقوم بين الثلاثة مودة وعلاقة علمية عظيمة.

وكما يذكر الشرقاوى: أنه فى العراق عَرف فيمن عَرف فرقاً تتحاور فيما بينها حول القضاء والقدر، وحول الإنسان، أمخير هو أم مسير، ووجد آخرين يبحثون عن مصادر الأحكام من أين يأتون بها إذا عرضت قضيتهَ ولم يجدوا لها حكماً فى القرآن أو السنة؟ إلى جانب جماعات أخرى يرى بعضها أن مرتكب الكبيرة كافر مُخَلَّدٌ فى العذاب، وبعضها يقول إن مرتكبها منافق يُظْهِر غير مايُبطن، فلو كان مؤمناً ما ارتكبها.. وثالث من رأيه أنه لا يضرَ مع الإيمان معصية، وأن أمر مرتكب الكبيرة يرجأ إلى أن يحاسبه الله.. وغيرها من أقضية فكرية وفقهية كانت تعج بها الحياة فى العراق. ومن عجيب الأمور أن هذه التساؤلات وجدت إحابات كافية وشافية من الإمام زيد، على الرغم من أن العراق كانت تعج وقتئذ بأكبر العلماء، وفى مقدمتهم أبو حنيفة النعمان، وواصل بن عطاء.

والحق أن القوم فى العراق التفوا حول الإمام زيد من منطلق حبهم لآل بيت الرسول، ومن منطلق ندمهم، لأن أسلافهم خذلوا جده الحسين، وبكل أحلامهم فى أن تعود للناس من جديد تلك الأيام الجميلة المفعمة بالفضائل. حين أصبح الإمام على أميراً للمؤمنين، فإذا الناس لا يمتاز أحدهم عن الآخر إلا بالعمل الصالح، وإذا بعلى يُحيى سنة رسول الله ﷺ. وها هو ذا الحفيد العظيم زيد يعيدها من جديد. ولكن هل يتركه الأمويون وأميرهم هشام بن عبد الملك بن مروان؟ هل يتركونه وقد أعلن رأيه فى شروط الخلافة، وبأنها لابد أن تتوافر لها ثلاثة أركان: الشورى، والمبايعة، والعدل؟ أبداً لن يتركوه.. وحدث ما حدث وراح الإمام زيد ضحية فى سبيل الدفاع عمّا يرى أنه الحق.

لكن على أى حال بقى من عِلم هذا الفقيه الفارس الكثير، فمن مجالسه

خرجت فكرة الزيدية - نسبة إليه، والمنتشرة فى ربوع اليمن، وأجزاء من شبه الجزيرة العربية. وهى تقابل الإماميه، وهما أكبر فرق الشيعة، ولا تزالان باقيتين حتى اليوم وبقدر ما عُرف من الإمامية من تطرف، كانت الزيدية معتدلة، وأقرب إلى أهل السنة، ولعل ذلك راجع إلى أن إمامها زيد بن على - كما رأينا - كان معتدلا فى أحكامه، ولعل هذا الاعتدال اكتسبه من أستاذه واصل بن عطاء، حيث تأثر به فى علمه، ووفرة حجته، وسلامة حكمه. ولعل فى إختيار الزيدية لإمامهم نلمح هذا الاعتدال فشروط الإمامة عند الزيدية أربعة عشر، هى: «ذكراً - حراً - عاملاً - أفضل أهل زمانه - سليم الحواس والأطراف - لم يمارس مهنة مرذولة - عادلاً - ورعاً - كريماً - حسن الدراية بتصريف الأمور - علوياً - فاطمياً - شجاعاً - مجتهداً» ولا تنتقل الإمامة فى الزيدية بالوراثة. وإنما تنتقل للأصلح، على أساس الشروط السابق ذكرها.

* * *